

2- الإيمان بالقيامة الكبرى وما يجري فيها

[وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون. فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفلة عراةً غرلاً، وتدنونهم الشمس، ويلجهم العرق. فتنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد { وَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ } [المؤمنون: 102، 103]. وتنتشر الدواوين، وهي صحائف الأعمال، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره؛ كما قال سبحانه وتعالى: { وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ قَائِمٌ وَمَا تَنصُرُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا أَفْرًا كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: 13، 14]. (الشرح) * قوله: (وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون...) ذكرنا أن من أمور الآخرة أن الله يأمر أن ينفخ في الصور ثلاث نفخات وقد ذكر الله النفخ في الصور في القرآن في عدة مواضع. والصور: قيل إنه قرن كبير ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله تعالى ثلاث نفخات نفخة الفرع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث أو القيام. ومن العلماء من يقول: إن نفخة الفرع تطول حتى يكون في آخرها الموت، فهي نفخة واحدة أولها فرع وآخرها صعق. ثم نفخة البعث وهي التي تحيي بها الأبدان. وورد في بعض الآثار أن الله تعالى ينزل من السماء مطراً كمني الرجال، وأنه مطر غليظ تنبت له الأجسام، فإذا نبتت الأجسام وجمعها الله وتكاملت: أذن الله في النفخ في الصور، فتأتي كل روح إلى بدنها ويحيي بإذن الله، وليس في ذلك عجب، فالله تعالى على كل شيء قدير. وقد حكى الله قصة بقوله: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ { حتى تفرقت أشلائه ولبيت عظامه، وكان معه حماره، وقد مات وبلي وتفرقت، ثم بعته الله وقال له: { وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِطَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ تَكْسُوهَا لَحْمًا { فنظر إلى العظام وهي متفرقة متباعدة، ثم بعد ذلك أمرها الله فجمعت، ثم أمرها فنبت عليها اللحم ثم نفخ فيها الروح، فقام الحمار ينهق بإذن الله، { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: 259]. فإذا أذن الله بجمع الأجسام، وبالنفخ في الصور، وبدخول الأرواح في أجسادها، حينئذ قام الناس من قبورهم، وخرجوا ينفخون الزبأ والغبار عن عروسهم، وساروا إلى الموقف، وقامت القيامة التي سماها الله بعدة أسماء: سماها بالطامة الكبرى، وسماها بالصاخة، وسماها الفارعة والحافة وما أشبهها؛ وذلك لأهمنيها وتبوتها ولا بد، كما قال الله تعالى: { كَمَا يَدَّأكُمْ تَعْدُونَ } [الأعراف: 29] فيحشر الناس إلى الموقف حفاة عراة غرلاً بهماً، يحشرون كما خلقوا، أي على الخلقة التي خرجوا إلى الدنيا بها، حفاة: غير منتعلين عراة من الثياب غير مكنتين. غرلاً لحديث ابن عباس رضي الله عنه الذي في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم محشورون حفاة، عراة، غرلاً: { كَمَا يَدَّأْتُ أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ } وإن أول من يكسى إبراهيم". أخرجه البخاري برقم (3349) في الأنبياء، باب: "قول الله تعالى: { وَأَنزَلْنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } ". ومسلم برقم (2860) [58] في الجنة، باب: "فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة". أي غير محتونين. وفي رواية: "بهما" لحديث عبد الله بن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يحشر الله الخلائق يوم القيامة حفاة عراة بهما..." الحديث. أخرجه البخاري في الأدب برقم (970) وفي التاريخ الكبير (7/ 169)، وأحمد في المسند (3/ 495) والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (131، 600)، والحاكم في المستدرک (2/ 437، 438) و (4/ 574، 575) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (1/ 225) وصححه الألباني في تخریح السنة، وهو في صحيح الأدب المفرد برقم (746) وقال: حسن. بمعنى أنهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن. فكانهم بمنزلة من لا يستطيع أن يتكلم، ولهذا قال: { فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا } [طه: 108] والهمس: هو صوت وطء الأقدام. وقيل: الكلام الخفي، فيحشرون على خلقتهم الأولى لم ينقص منهم شيء { كَمَا يَدَّأكُمْ تَعْدُونَ } . ثم يتوجهون إلى المحشر، وبعد ذلك يأذن الله تعالى في جمعهم، ويطول الموقف، وتدنون الشمس منهم، ويزاد في حرها، ويلجهم العرق لشدة الموقف، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبه، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ إلى حنجره، ومنهم من يبلغ إلى ثيابه، ومنهم من يبلغ إلى ميئكبه، ومنهم من يلجمه العرق إلخاً، أي يصل إلى فمه، ذلك كله بقدر أعمالهم، وبقدر ذنوبهم. وذكر الله تعالى أنه يوم طويل فقال تعالى: { وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } [الحج: 147] في هذه الآية ذكر أنه كالف سنة؛ أي طوله، وفي آية أخرى: { فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } [المعارج: 4] ولعل طوله أو قصره بالنسبة إلى تفاوت الناس، فمنهم من يطول عليه كثيراً، ومنهم من يطول عليه وسطاً، ومنهم من يخف عليه، حتى قيل: إنه على المسلم كصلاة مكتوبة، أي لا يشعر بطوله. *قوله: (فتنصب الموازين، فتوزن بها أعمال العباد { وَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } وتنتشر الدواوين وهي صحائف الأعمال...): وفي ذلك اليوم عندما ينزل الله تعالى لفصل القضاء بحكم بين عباده. فأولا: تنصب الموازين القسط التي ذكرها الله تعالى في عدة آيات. قال الله تعالى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا } [الأنبياء: 47] وأي شيء مثل الخردل، فلا يظلم الله تعالى أحداً. وقال تعالى: { إِنَّهَا إِنْ تَك مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ تَأْتِ بِهَا اللَّهُ } [لقمان: 16] وهذا دليل على أنه يُوزن الأعمال وزناً حقيقياً، خلافاً لكثير من المبتدعة الذين قالوا: الميزان هو العدل، ولكن الجمهور على أن هناك ميزاناً حقيقياً له كفتان ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في عدة أحاديث. قيل إن الذي يوزن هو الإنسان نفسه، فيوضع في الميزان، فتارة يخف وتارة يتقل. قال تعالى: { فَلَا نُعِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَثًا } [الكهف: 105] وورد في الحديث: { إنه ليؤتى بالرجل السمين الأكل الشروب، لا يزن عند الله جناح بعوضة } ثم قرأ هذه الآية أخرجه البخاري برقم (4729) في التفسير [سورة الكهف] باب: { أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائيه } ومسلم برقم (2785) في صفات المنافقين عن أبي هريرة رضي الله عنه. ويقول صلى الله عليه وسلم في ابن مسعود لما تعجبوا من قوة ساقبه: { إنهما في الميزان أقل من جبل أحد } أخرجه أحمد في المسند (1/ 420، 421). قال أحمد شاكر (3991): إسناده صحيح. فدل على أن الإنسان يرجح إذا كان رجلاً صالحاً، ويخف إذا كان فاسقاً كافراً. وقيل: توزن صحف الأعمال التي كتبت فيها فتخف إذا كانت أعمالاً سيئة، وتثقل إذا كانت أعمالاً صالحة، ودليل ذلك حديث البطاقة، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم { أن رجلاً ينشر له تسعة وتسعون سجلاً فيها سيئاته، وأنه يخرج له بطاقة فيها الشهادات، ولكنها شهادة صادقة صادرة من القلب ختم بها حياته، فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة } حديث البطاقة أخرجه الترمذي برقم (2639)، في الإيمان. وابن ماجه برقم (4300) في الزهد. وأحمد في المسند (2/ 213) والحاكم في المستدرک (1/ 529). وقال الترمذي: حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وصححه الألباني وهو في صحيح الجامع برقم (1776) وسلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (135) وقال أحمد شاكر (1994): إسناده صحيح. فهذا دليل على أن الصحف تُوزن، وأن ثقلها وخفتها بحسب صلاح قلب العامل وصدقه فيها أو عدم ذلك. وهناك من يقول: إن الأعمال تُحسَد فتكون أجساداً، والله تعالى قادر على أن يقلب الأعراس أجساداً، فيجعل الصلاة شيئاً محسوساً، ولو كانت عرضاً، وكذلك الكلام ولو كان عرضاً وليس له جرم، ولكن بجسده الله ويجعل له جرماً يخف ويثقل. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: { والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض } أخرجه مسلم برقم (223) في الطهارة. فدل على أن هذه الكلمة يكون لها جرم توزن، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: { كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان على الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم } أخرجه البخاري برقم (6682) في الإيمان والذنوب، باب: "إذا قال: والله لا أتكلم اليوم..." . ومسلم برقم (2694) في الذكر والدعاء، باب: "فضل التهليل والتسبيح والدعاء". عن أبي هريرة رضي الله عنه. فجعلها تثقل في الميزان، فتوزن ويكون لها جرم، فيقلبها الله أجساماً وإن كانت أعراساً. ولا شك أن معرفة هذه الأشياء والإيمان بها له تأثير على العبد، فإذا صدقت بان هناك وزناً، حملك على أن تستعد لذلك؛ لأن الله تعالى يقول في هذه الآية: { وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ } [المؤمنون: 102، 103] وفي آية أخرى: { وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَلْمُونَ } [الأعراف: 9] وفي آية أخرى: { قَالِمًا مَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمَةٌ هَآوِيَةٌ } [الفارعة: 6-9]. وهذا كله دليل على أن هناك وزناً حقيقياً؛ فالمسلم الذي يؤمن بذلك يستكثر من الأعمال الصالحة التي يثقل بها ميزانه، وإذا استكثر منها حرص على أن تكون أعماله صالحة صادقة، صادرة من صميم قلبه، فإن ثقل الأعمال وخفتها يختلف بحسب إخلاص العامل وإخلاص نيته. ثانياً: تنتشر الدواوين؟ وهي صحائف الأعمال التي كتبت فيها، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره، وكل ذلك مما فصله الله تعالى في القرآن. قيل: إن هذا الكتاب بطاقة فيها بشارة للإنسان بأنه سعيد؛ بطاقة مكتوب فيها: هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه حنة عالية قطوفها دانية. وأنه يستبشر ويفرح، وكل من لقيه يقول: { هَآؤُمُ أَفْرَعُوا كِتَابِيَةَ } [الحاقة: 19] فإن فيه ما يسر وفيه ما يفرح. وأما من أوتي كتابه بشماله أو من وراء ظهره فإنه- كما ذكر الله- { قَسُوفٌ يَدْعُونَ ثُبُورًا وَيَتَضَلَّى سَعِيرًا } [الانشقاق: 11، 12] ويقول: { يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْت كِتَابِيَةَ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ } [الحاقة: 25، 26] إلى آخر ما ذكره الله تعالى في كتابه، فهذا أدلة واضحة من القرآن. وقيل: إن المراد بالكتاب هنا هو الكتاب الذي سجلت فيه الأعمال كلها، وصحائف الأعمال كلها. ودليل ذلك قوله تعالى: { وَخُرِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا أَفْرًا كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: 13، 14]. فدل على أنه يؤتى الكتاب الذي احتوى على أعماله كلها، دقيقها وجليلها، فيقرأه ويتفقد ولا يفقد منه شيئاً. كما أخبر الله عن المجرمين أنهم يقولون: { يَا وَرَثَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا } [الكهف: 49] هذا ونحوه يرجح أن الكتاب الذي يؤتاه هو كتاب صحف الأعمال، وأنه يجد فيها دقيقها وجليلها، قولها وفعلها. فإذا آمن الإنسان أن أعماله مكتوبة ومحصاة عليه، وأنه سيعرض عليه كتابه وأنه لا يقدر على أن ينكر شيئاً، وأنه إن أنكر؛ شهدت عليه الملائكة الكرام الكاتبون الحافظون، وكذلك أيضاً شهدت عليه جوارحه. قال تعالى: { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ } [يس: 65] فنشهد عليهم هذه الجوارح بما كانوا يعملون: { شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَخُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لَوْلَا جَلُدُنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَ اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [فصلت: 20، 21] { يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ السَّيِّئَاتِ وَيُؤَيِّدُ بِيَدِهِمْ وَآزِلْهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النور: 24] فإذا آمن الإنسان بذلك كله، فإنه يستعد لذلك اليوم، فيعمل الأعمال التي تكون راداً منجياً من هول هذا اليوم.